جمهورية مصر العربية	٣ من ربيع أول ١٤٣٨هـ
وزارة الأوقاف	٢ من ديسمبر ٢٠١٦م

(١)

النبي (صلى الله عليه وسلم)
من الميلاد إلى البعثة

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز : {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ}، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد :

ففي مثل هذه الأيام المباركة من كل عام وفي شهر ربيع الأول يستقبل المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها ذكرى ميلاد الحبيب المصطفى (صلى الله عليه وسلم) الذي شهد له الأنبياء برسالته قبل مولده ، وأقروا له بنبوته قبل بعثته ، ثم توّج الله تعالى شهادة أنبيائه ورسله بشهادته ، فقال سبحانه : {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ}.

ولا عجب في ذلك فقد كان ميلاده (صلى الله عليه وسلم) فاصلاً بين عهدين ، عهد الشرك وعهد التوحيد ، عهد الفوضى وعهد النظام ، عهد الظلم وعهد العدل ، كان العالم قبل مولده (صلى الله عليه وسلم) يعيش حالة من الفوضى والاضطراب ، ضلَّ فيها طريق الهدى والرشاد ، وانحرف فيها عن الفطرة الإلهية والمنهج الربَّاني، كانت البشرية كلها غارقة في جاهلية عمياء يعلوها الشرك وفوضى الأخلاق ، لا سلطان يحكمها ، ولا قانون يجمعها ، فقد

كانت الأموال منهوبة ، والدماء مسفوكة ، والحروب متواصلة ، كان العالم يتخبط في ظلام دامس حتى وصل الأمر إلى فقدان العواطف الإنسانية ، بل إلى حد فقدان العواطف الأبوية بوأد البنات خشية الفقر والعار، قال تعالى:{وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ}.

لهذا اقتضت إرادة الله (سبحانه وتعالى) أن ينقذ البشرية من هذا الضلال وهذا الظلم ، بأن يرسل إليهم هاديًا ومبشرًا ونذيرًا ، يخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويأخذ بأيديهم إلى طريق الهدى والفلاح ، وهو سيدنا محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) ، فكان الميلاد الأعظم منَّةً من الله تعالى على عباده ، ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن الظلم إلى العدل ، حيث قال سبحانه: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى المُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ}، وقال (عز وجل):{هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}.

وقد كان ميلاده (صلى الله عليه وسلم) استجابة لدعوة الخليل إبراهيم (عليه السلام) حيث دعا ربه قائلًا:{رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}، وتصديقا لبشارة عيسى (عليه السلام) حيث بشر به في الإنجيل ، ويحكي لنا القرآن

الكريم هذه البشارة فيقول:{وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ}، ولذلك لما سئل النبي (صلى الله عليه وسلم) فقيل له يا رسول الله أخبرنا عن نفسك؟ قال: نعم. أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى أخي عيسى ..".

والمتأمل في فترة ما بين المولد إلى البعثة للنبي (صلى الله عليه وسلم) والتي تقدر بأربعين عامًا من عمره (صلى الله عليه وسلم) يجد أنه ظهرت فيها العناية الربانية في إعداد سيد البرية (صلى الله عليه وسلم) ، وتجلت فيها الصفات الحميدة التي تنبئ عن كريم أصله وشرف نسبه.

فقد حبا الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وسلم) بكثير من المناقب والتكريم والتعظيم ، حيث أكرمه ربه في ولادته ، فوُلدَ في أشرف بيت من بيوت العرب ، وطهر الله أصوله فلم يختلط نسبه بشيءٍ من سفاح الجاهليّة ، فكان من أطهر أنسابهم وأعرق أصولهم ، يقول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ ، فأنا خيار من خيار من خيار).

كذلك أكرمه ربه (عز وجل) بحسن نشأته ، وأدبه فأحسن تأديبه ، يقول الحق سبحانه:{وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى * أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ}، ويقول (صلى الله عليه وسلم) :

(أدبني ربي فأحسن تأديبي) ، فقد نشأ (صلى الله عليه وسلم) يتيمًا ، مات أبوه وهو في بطن أمه آمنة بنت وهب ، ولما بلغ من العمر ست سنوات ماتت أمه وعاش في كفالة جده عبد المطلب الذي أعطاه رعاية كبيرة، ثم انتقلت كفالته إلى عمه أبي طالب بعد موت جده ، لكنه (صلى الله عليه وسلم) كان في رعاية الله وعنايته ، محفوظًا بحفظه عز وجل له.

ورغم نشأته (صلى الله عليه وسلم) في أجواء الجاهلية إلا أنه تميّز في صغره عن غيره من البشر ، فلم يتلوث بأي من عادات الجاهلية المنحرفة ، وكان ينأى بنفسه عن أخلاق الجاهلية وأفعالهم ، فلم يسجد لصنم ولم يشرب خمرًا، وقد حفظه الله في صغره من أن يقع فيما يقع فيه بعض الشباب ، وفي ذلك يقول (صلى الله عليه وسلم) : (مَا هَمَمْتُ بِقَبِيحٍ مِمَّا يَهُمُّ بِهِ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ إِلَّا مَرَّتَيْنِ مِنَ الدَّهْرِ كِلْتَاهُمَا عَصَمَنِي اللَّهُ مِنْهُمَا ، قُلْتُ لَيْلَةً لِفَتًى كَانَ مَعِي مِنْ قُرَيْشٍ بِأَعْلَى مَكَّةَ فِي غَنَمٍ لِأَهْلِنَا نَرْعَاهَا: أَبْصِرْ لِي غَنَمِي حَتَّى أَسْمُرَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ بِمَكَّةَ كَمَا يَسْمُرُ الْفِتْيَانُ، قَالَ: نَعَمْ، فَخَرَجْتُ، فَلَمَّا جِئْتُ أَدْنَى دَارٍ مِنْ دُورِ مَكَّةَ سَمِعْتُ غِنَاءً، وَصَوْتَ دُفُوفٍ، وَمَزَامِيرَ ، قُلْتُ: مَا هَذَا؟ قَالُوا: فُلَانٌ تَزَوَّجَ فُلَانَةَ لِرَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ تَزَوَّجَ امْرَأَةً مِنْ قُرَيْشٍ، فَلَهَوْتُ بِذَلِكَ الْغِنَاءِ، وَبِذَلِكَ الصَّوْتِ حَتَّى غَلَبَتْنِي عَيْنِي، فَنِمْتُ فَمَا أَيْقَظَنِي إِلَّا مَسُّ الشَّمْسِ، فَرَجَعْتُ إِلَى صَاحِبِي، فَقَالَ: مَا فَعَلْتَ؟ فَأَخْبَرْتُهُ، ثُمَّ فَعَلْتُ لَيْلَةً أُخْرَى مِثْلَ ذَلِكَ، فَخَرَجْتُ، فَسَمِعْتُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقِيلَ لِي: مِثْلُ مَا قِيلَ لِي، فَسَمِعْتُ كَمَا سَمِعْتُ، حَتَّى غَلَبَتْنِي عَيْنِي، فَمَا أَيْقَظَنِي إِلَّا مَسُّ الشَّمْسِ، ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى صَاحِبِي، فَقَالَ لِي: مَا فَعَلْتَ؟ فَقُلْتُ: مَا فَعَلْتُ شَيْئًا، قال رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): فَوَ اللَّهِ، مَا هَمَمْتُ بَعْدَهُمَا بِسُوءٍ مِمَّا يَعْمَلُهُ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ ، حَتَّى أَكْرَمَنِي اللَّهُ بِنُبُوَّتِهِ).

ولما بلغ (صلى الله عليه وسلم) مبلغ الشباب أكرمه ربه (سبحانه وتعالى) بحسن خلقه ، واستقامة شبابه ، وكمال عقله ، فكان (صلى الله عليه وسلم) يتحلى بالأخلاق الكريمة ، والصفات النبيلة ، وكان من عادته أن يهتم بمن حوله ، فاشتهر عنه مساعدة المحتاجين ، وإكرام الضيوف ، والإحسان إلى الجيران ، والوفاء بالعهد ، وعفة اللسان ، وكان قمة في الصدق والأمانة حتى عرف بين قومه بـ " الصادق الأمين".

وقد أَلِفَ (صلى الله عليه وسلم) العمل والكفاح منذ صغره فكان يعمل في رعي الأغنام ، ثم اتجه للعمل في التجارة ، ولما رأت خديجة (رضي الله عنها) أن تجارتها قد ربحت أكثر ما كانت تربح ، وذكر لها ميسرة ما رأى من حال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في سفره ومعاملته وجميل خصاله، وقع في قلبها حبه ، ورغبت في الزواج منه فتزوجها رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

وقد امتاز (صلى الله عليه وسلم) في شبابه بالمشاركات الإيجابية الفعالة التي كان لها أكبر الأثر في هداية الناس إلى الطريق المستقيم ، حتى جاء التكريم الأعظم ببعثته (صلى الله عليه وسلم) رحمة للعالمين ، وهاديا للحائرين.

ومن أهم هذه المشاركات الإيجابية وأكثرها تأثيرًا في مكة : **شهوده (صلى الله عليه وسلم) حلف الفضول** ، وقد شارك فيه وهو في سن العشرين، وكان أكرم حلف وأفضله للعرب في الجاهلية ، وسببه أن رجلا من قبيلة (زبيد) باليمن قدم مكة ببضاعة ، فاشتراها منه العاص بن وائل السهمي وأبى أن

يعطيه حقه، فاستعدى عليه الزّبيدي أشراف قريش فلم يعينوه لمكانة العاص فيهم ، فلما رأى الزبيدي الشر وقف عند الكعبة واستغاث بأهل المروءة ، فاجتمعت بنو هاشم، وزهرة، وبنو تَيْم بن مرة في دار عبد الله بن جدعان، وتحالفوا في شهر حرام، وهو ذو القعدة، فتعاقدوا وتحالفوا بالله ليكوننّ يدًا واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يرد إليه حقه ، فسمّت قريش هذا الحلف «حلف الفضول» وقالوا: لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر .

كان حلف الفضول لنصرة المظلوم ، والدفاع عن الحق ، ويعد من مفاخر العرب قبل الإسلام ، ولقد بدت علامات الرضا والفخر بهذا الحلف في كلام النبي (صلى الله عليه وسلم) إذ يقول: (لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا مَا أُحِبُّ أَنَّ لِيَ بِهِ حُمُرَ النَّعَمِ، وَلَوْ أُدْعَى بِهِ فِي الْإِسْلَامِ لَأَجَبْتُ).

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين. **إخوة الإسلام** :

من الأحداث العظيمة التي شارك فيها النبي (صلى الله عليه وسلم) قبل البعثة وهو في سن الخامسة والثلاثين: **إعادة بناء الكعبة المشرفة** حين اختلف أهل مكة فيمن ينال شرف وضع الحجر الأسود في موضعه ، وكادوا يقتتلون لولا أن الله (عز وجل) هداهم أن يحكم بينهم أول من يدخل عليهم الحرم ، فإذا برسول الله (صلى الله عليه وسلم) يدخل عليهم ، ونظرًا لمعرفتهم

برجحان عقله ، وفصاحة لسانه ، وحلاوة منطقه وحكمته البالغة في تقدير الأمور ، قالوا : هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمد ، وما أن انتهى إليهم حتى أخبروه الخبر ، فقال : (هلمّ إليَّ ثوبًا)، فأتوه به ، فوضع الحجر في وسطه ثم قال : (لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعًا) ، ففعلوا ، فلما بلغوا به موضعه أخذه (صلى الله عليه وسلم) بيده الشريفة ووضعه في مكانه.

وقد نتج عن مشاركته (صلى الله عليه وسلم) في هذا الحدث الجليل أمران: الأول: قطع النزاع وإنهاء الشقاق والخلاف بين أهل مكة على يديه (صلى الله عليه وسلم). والثاني: حصوله (صلى الله عليه وسلم) على شرف وضع الحجر الأسود بيديه الشريفتين في مكانه من البيت ،.

وتطوى الأربعون سنة من حياته (صلى الله عليه وسلم) بتأكيد نبوته وصدق ما جاء به ، لما عرف به من حسن الخلق حتى قالت خديجة (رضي الله عنها) : (كلا والله ما يخزيك الله أبدًا ، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَل، وتكَسب المعدوم، وتَقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق).

وكان مسك الختام ببعثة خير الأنام (صلى الله عليه وسلم) بالحق وإلى الحق ، ويبدأ عهد جديد للإنسانية بعد أن مرَّ عليها حين من الدهر كان الجهل شعارها ، والظلم قانونها ، والشرك دينها ، وكانت البداية في جبل النور في غار حراء :{اقْرَأ باسم رَبك الَّذِي خلق * خلق الْإِنْسَان من علق * اقْرَأ وَرَبك الأكرم * الَّذِي علم بالقلم}.

فما أحوجنا إلى أن نتعلم سيرته (صلى الله عليه وسلم) ، وأن نهتدي بهديه، وأن نتمسك بأخلاقه ، حتى يحشرنا الله تعالى في زمرته ، ويشملنا بشفاعته.